وزارة الثقافة

مرقص العميان

تأليف: عارف العارف

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: عارف العارف

اسم الكتاب: مرقص العميان

الطبعة الأولى: ١٩٤٧

الطبعة الثانية: ٢٠٢٢

الإشراف العام: عبد السلام عطاري

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

لوحة الغلاف للفنان: جبرا إبراهيم جبرا

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

مرقصُ العميان

رقص العميان

عارف العارف

دكتور فى الحقوق
وليسانسيه فى الأدب والسياسة والحقوق العامة
والاقتصاد السياسى من جامعة باريس والسربون
ومدرسة العلوم السياسية بباريس

الناشر
دار الفكر العربى
١٩٤٧

الإهداء

إلى من كان أعزّ من النَّور في عيني، ومن الحبَ في

قلبي، والطّموح في صدري، إلى من يأوي عند سفح ربوة

من ربا "الزارة" بين فلذات كبده، وشقائق روحي

إلى الماثل طيفه في خيالي، وذكراه في قلبي

إلى أبي ....

عارف

بسم اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ

إلى القارئ

ما نسجتُ لكَ هذه القصَّة في فكري، ولا وشيتها من خيالي، ولكنَّ الزَّمان سبكَ منها فصولًا، وحَبَكَ بعضها الإنسان، فكتبتُ ما أملى عليّ الزَّمان، والإنسان.

كتبتها من قلبي، ومشاعري، في سجل الحياة أنينا، قبل أن أسطرها ببراعتي، ومدادي على الطرس، كلامًا.

كتبتها من النّور ظلامًا، ومن التلهّف غصصًا، والرحيق حميمًا.

كتبتها من هديل الحمام، وتراتيل البلبل والحسّون، ومن غناء الجداول والأغصان، ومناغاة الربا والرّياحين، نعيبَا محقّ الواحة فباتت يبابا.

كتبتها من الموت حياة، ومن العدم وجودا، والمحال يقينا.

كتبتها من القهر صبرًا، ومن الصدّ مضاء، والاندحار انتصارًا.

كتبتها من العزم إيمانًا، ومن الإيمان طموحًا بدَّل اليأس رجاءَ، والسّراب معينًا، ومن الحسّ مزاجًا، والمزاج هوى حوّل العلقم شهدًا، والجحيم نعيمًا.

كتبتها وحدي، بل خطَّها وعاشها "طريق" عشير طفولتي وشبابي.

عارف العارف

بيروت ١٩٤٦/١٠/٢٨

طَرِيدُ القَدَر

مهما تراجعت مطوي عمري، لأنبئك متى عرفت طريفا، وأني خادنته، فلن أذكر إلا أننا كنا تربين لا يختلفان، وعشيرين لا يفترقان، نلعب معا في مدارج القرية، ومنعطفاتها، وفي أوديتها ورباها. وإنه كان بكر أبويه، أسمر اللون، أسود العينين، متفوقا عليّ وعلى الأتراب في الكتاب تفوقا لم تعهد القرية له مثيلا، وإنه ما كاد يختم المصحف الشريف، ويشرع في تعلم الخط والحساب، حتى غيب الدهر عن عينيه صور الكائنات بحجاب أبدي من الظلام، فغادر الكتاب ولكن اليأس والأسى لم يغادرا قلب أبويه، فانقلب حبهما له، وزهوهما به تلهفا ورفقا يذوبان فيستحيلان دموعا.

وكأن هذه الفاجعة الأولية، ما أرهقت ذلك الوليد ولا أوصدت دونه بهجة الطفولة، وأفراح الوجود، فلم ينقض على موت عينيه ردح من الزمن، حتى عاجلت المنون أباه، فانتزعت من أسرته عونها الأوحد، وحرمته إلى الأبد عطفه وحنانه، وما كادت لواعج اليتم تهدأ في عينيه، حتى شيع إلى وحشة الرمس تباعا ثلاثا من

شقيقاته الأربع، وشقيقه، فأقفر ذلك البيت الذي كان يشع بهجة وأنسا، وباتت والدته الأم الثكلى تبكي زوجا في شرخ الشباب، وأطفالا في بسمة الحياة، تناديهم كلما آن وقت مجيئهم كأنهم لا يزالون أحياء ، وكأنها ترقب عودتهم بعودة رفاقهم وأترابهم.

وما أن لجأت أشلاء أسرته، على أثر هذه الفواجع الوجيعة إلى قرية أخواله، حتى زفّ إلى أرمل غريب الدار أمه، وصحبها مع شقيقته الباقية إلى منزل زوجها الجديد، غصيصا، قريح القلب، مريض الجناح؛ ليظلل بكنف ضر والده، بل ليفجع هنالك بأمه، ويرتد إلى مسقط رأسه طريد القدر، شريدا يتخبط وحده غريبا في لجج الحياة الصاخبة، وغياهبها المتجهمة لا أم تحنو عليه، ولا أب يرأف به ولا أخ يشد عضده، ولا أحد يحميه، ولا عم ينصره، ولا عمة تعطف عليه ولا بيت يأويه ولا مال يسعفه، ولا عين تهديه سواء السبيل.

لا ريب في أن بعض هذه النوائب لو نزلت على أقسى الأنام فؤادا، لفتّتت كبده وأرغمته على اليأس من الحياة والنقمة عليها،

فكيف بها وقد انصبت كلها على صبي مرهف الحس، رقيق العواطف لمَّا يخبر الحياة ونوازلها.

غير أن العقل مهما ارتقى و تفنن في التعرف إلى الطبيعة، واستجلاء غوامضها فلن يتفهم النفس البشرية ويعلم يقينا ما يطبع فيها الحدثان من أثر، فكم من الخلق من تبدل مجرى حياته من جراء عارض يسير، و كم منهم من تنكر له الدهر، فلم يبدل منه شيئا، ولعل طريفا أبلغ مثال لما قدمت، فإن الخطوب المتتابعة وإن أترعت بمرارة الحياة جنانه، فإنها لم تصرعه ولم تدفعه إلى اليأس، فظل لعوباً مرحا، يشارك أترابه عبثهم وشجارهم، ذلك الشجار الذي يقع عادة بين ولدان مختلف الأحياء، ويتخذ شكل غارات منظمة يتبادل خلالها الفريقان الحجارة تراشقا باليد حينا و حينا بالقلاع. والغريب أن طريفا كان دائما من قادة تلك الغارات الليلية ومنظميها، وفي طليعة المغيرين من أبناء حيه، وأغرب من ذلك أنه لم يكن يضرب الضربة إلا بعد أن يمهد لها سبيل الإصابة، شاتما من يستهدف من غرمائه بصوت رفيع حتى إذا رد عليه وتبين مقره أطلق الحجر من مقلاعه صوب مصدر الصوت: يخطئ الهدف مرة ويصيبه أخرى.

وقد ظل طريف مستطلعا المعرفة، يتلمسها ويسعى إليها أنى كانت، في المنازل، والحوانيت، ويحفظ من القصاصين فصولا من عنترة، وسيف بن ذي يزن، وبني هلال، وما إليها، من قصص متداولة في القرية. غير أن تلك القصص لم ترو ظمأه، فكان يتلهف دائما إلى الكتاب، ويتألم بمرارة كلما سمع رفاقه يتحدثون عنه، أو يذهبون إليه، وكثيرا ما كان يمر بجانبه حتى يذكى بأصوات التلاميذ، وجلبتهم الحسرة في نفسه. فلما جاء القرية شيخ من أهلها المغتربين، وأنشأ كتابا يقبل العمي والمبصرين، على مثال كتاتيب المدن، سارع إلى الالتحاق به، كما سارعت فعدنا نتتلمذ على شيخ واحد، وماهي غير أيام، حتى استرعى جده واجتهاده انتباه الشيخ ونال إعجابه، فأقبل عليه يحفظه القرآن الكريم برغبة، واندفع طريف يستظهره بشوق، فقلت له ذات صباح قبل وصول الشيخ، وهو على مرحه الدائم كأن شيئا من المصائب المتعاقبة عليه لم يمسه: ويحك يا طريف، كيف تستطيع مشاطرتنا جد الحياة ولهوها، بل كيف تطيق الوجود، وقد زوى الدهر عنك أفانين الحياة، حرمك وجه الأرض، والسماء، وما فيهما من ألوان وضياء، كما حرمك عطف أبويك وأشقائك، وما في همس حركتهم،

وجرس وجودهم من بهجة ونعيم، فوالله لو نابني بعض ما دهاك، لآثرت الموت على الحياة، ولأفنيت العمر شاكيا يائسا، لا ألوي من الدنيا على شيء" فأشاح عني بوجهه، وقد امتقع لونه وانطوى على نفسه كأن حديثي بعث فيها شجى دفينا، ثم التفت إليّ يتمتم عن لوعة دامعة، ما أشك في أنه لو استطاع الإفصاح عنها آنئذ كلاما لقال: "أتعلم يا صديقي أنك آلمتني وجرحت عواطفي، ذلك بأني ما ذكرت أبي ولا أمي، ولا إخوتي ، إلا تيتمت من جديد، وما ذكرت ألوان الطبيعة ولا ضياء النجوم، إلا عميت من جديد، فبالله عليك لا تيتمني يا صديقي ولا تعمني بعد اليوم، و تحاش دائما أن تسأل مصابا عن مصابه، أو أن تشير إليه ولو تلميحا بالحديث، إذ إن ذلك يوقظ كامن الحزن في نفسه كما أيقظت اليتم والعمى الكامنين في أعماق قلبي".

قلت: "عفوا يا طريف، أنت إذن يائس مكلوم، وما البهجة المتألقة في وجهك إلا سراب وراءه اليباب".

فتبدلت قليلا قسمات وجهه، وقال: "آه لك يا صديقي! أمن أهل التشاؤم أنا حتى يظل اليباب في صدري من جراء ما لا سبيل إلى

رده. أين صبري وجلدي؟ أم أين إيماني بالحياة وحقي عليها؟ إن فعلت كما يفعل أولئك القوم كلما داعبهم القدر مداعبة خشنة، فأجدفت وجدفت ورحت أتطاول مثلهم على الأرض والسماء، أهز اللوح باحتجاجي والفلك بآهاتي، وتنهداتي، إني لأحزن ويتوجع قلبي بين الفينة والفينة أكثر مما يحزنون ويتوجعون. بيد أني لا أيأس من الحياة، ولا أنقم عليها، إذ إن اليأس من الحياة والنقمة عليها كفر بمشيئة الخالق، وحرمة الوجود، كفر بعزائم الإنسان ومواهبه، كفر بأجدادنا الغر الذين بخفقة من الإيمان ملكوا الدنيوين ومالوا بالزمان، كفر بنفسي، وطموحي والأمل. ولعلك لا تريد لي الكفر بجميع هذه القيم، وقد مَنَّ الله عليّ بقلب يسع العوالم محبة وتحنانا، وشعور يدرك همس النفوس والأشياء، وما دون ذلك مقالا، وخيال يمتد إلى ما وراء الكون فيدني من المحال. ولا يغرب عنك أن جمال الأشياء ليس في أن تراها عيناك ولكن في أن يتحسس ما وراءها جنانك، وتناجيه عواطفك، وإن التحسس والمناجاة ليسا وليدي العين والأبصار، بل هما وليدا الحس والخيال، فمن كان مرهف الحس منطلق الخيال أدرك جمال

الوجود، وانعكس إشعاعه على نفسه، ومن لم يكن كذلك، كان غريبا عن الحياة، ولو كانت له ألف عين وعين.

فأنا وإن لم أبصر بعيني ألوان الطبيعة ولا ضياء النجوم فإني أبصر بقلبي وحسي وخيالي ما وراء هاتيك المظاهر، فإذا كان الليل سمعت الكون الصامت يناجي ضميري، ويغمرني برهبة الوجود، وإذا كان النهار تنسمت عبق الطبيعة وأنفاس الكائنات، فامتلأت نفسي روعة وسحرا يسكران فؤادي وكل جوارحي. وثق بأني ما أصغيت إلى ظاهرة من ظاهرات الكون ولا أقبلت على أمر من أمور الحياة، إلا كنت طربا جذلان، كأني في نشوة دائمة، وسكر مستمر أو كأن الحياة نفسها سكرى بين جوانحي نشوانة في مشاعري وعواطفي.

كان طريف يتكلم بحماسة هادئة، وكان حديثه العذب يصعد من أعماق قلبه فينساب إلى قلبي ويشيع فيه الروعة والإعجاب، وكان يُخَيّل إليّ وأنا أصغي إليه أنَّ سلكًا كهربائيًا يصل فمه بعيني، ومسمعي، فلم أحوِّل عنه ناظريّ، ولم أحرك شفتي خشية أن أقطع عليه حديثه.

غير أنَّ الشَّيخ قطعه بخفق نعليه.

انطِلَاقٌ

كان طريف ينقش القرآن الكريم في سويداء قلبه، بعد أن نقشه في سواد عينيه، وكان ماضي العزيمة، طموحا، سعيدا بحياته، سعيدا برفاقه وكتابه.

غير أن الحياة في أجمل مظاهرها، والسعادة في أبهج ألوانها، لا تخلصان من غصص، ولا سيما في مجتمع روحه المادة، وشعاره الكسب، والادخار، فما أن استوعب طريف جزأين من المصحف الشريف، وبدأ يستظهر الجزء الثالث حتى أكرهه الشيخ على أن يرافق في الحفظ تربا له كفيفا مرفها يدعى رشيدا، طمعا في صلات أسرته، وهداياها، فعقل هذا الترب بغباوته وسرعة نسيانه نباهة طريف، وسرعة حفظه، وعاق طموحه، فضاقت به الحياة، ويئس من الكتاب، حتى نهض مرة ليغادره فضربه الشيخ بحذائه الغليظ في ظهره ضربة ردته إلى مكانه.

ولكن الشر مهما تفاقم واستطار، فلا بد أن يحمل الخير بين أردانه، كالخير مهما سخا، واتسع، يحمل الشعر في مفاتن حليه، فقد كان من عادة الشيخ أن يتقاضى من كل تلميذ بيضة في الأسبوع، وحدث ذات يوم أن استعصت البيضة على دجاجات

أسرة رشيد فجاء الشيخ لا يحمل كالعادة في يده البيضة المنتظرة، فغضب الشيخ، وغضبت أسرة رشيد، فكان جدال، وكان سباب، ففراق، لا جشعا من الشيخ، ولا شحا من أسرة رشيد، ولكن عنادا من الطرفين بل إنقاذا لطريف من ذلك القيد الذي طالما استنجد الإنسان لفكه فلم يفعل، وفكته بيضة دجاجة.

سر طريف، بل طرب لهذا التحرر يعيد إليه، انطلاقه وعاد يلتهم المصحف الشريف حفظا، إلى أن قدم القرية وفد من علماء المدينة، ووجوهها لمعونتها في إنشاء مسجد اعتزمت بناءه، فأعجبوا بطريف، ورغبوا في أن يؤم مدرستهم الخيرية التي كانت تمد طلابها ليكونوا رسل نهضة، وتقى، في قومهم، وتزودهم إلى جانب الدين واللغة بأحدث العلوم، فكان لهم ما أرادوا، وله ما تمنى، وكان للغيرة في أهلي أن تدفعني إلى أن أتبعه.

إن أول درس حضرناه في تلك المدرسة شذرة في الإملاء، نصها علينا المدير ثم أمر تلميذا كان إلى جانب طريف بأن يتلوها فتوقف في القراءة غير مرة واقترف ما لا يعد من الأخطاء. فما كان من طريف، وهو القروي الساذج، إلا أن وقف فجأة وانبرى يتلو

الشذرة كلمة فكلمة غير متلكئ ولا متلعثم، كأنما كان يحميها من عهد بعيد. فدهش المدير ودهش التلاميذ جميعا من بادرة طريف ووعي حافظته، ولكن الدهشة زادت حين كان طريف الأول في نهاية السنة المدرسية في جميع المواد خلا الرياضيات. فغمرته اللجان الفاحصة بالتهاني، والجوائز، وعينت له الجمعية على غرار المجلين من التلاميذ، مرتبا خفف ما كان يعاني منذ وفاة أمه من ألم الفقر والحرمان.

وبدهي أن يثير تفوقه شيئا من الامتعاض في نفسي، إلى جانب ما أثار من دهشة، وأن يهيب بي إلى الانتقاص من أهمية هذا التفوق، كيف لا وأنا الذي كنت أذلل دروسه، وأتلوها عليه.

بيد أني ترددت مخافة أن أؤذيه في عواطفه، ولكن الأثرة تغلبت على كل شعور في نفسي، فما تمالكت أن قلت له ونحن في القطار إلى قضاء العطلة في القرية:

- لا يستريب أحد يا طريف، في أن العمى يحول قوة الأبصار من العينين إلى الدماغ، ويضاعف بالتالي الذكاء، وفضلا عن ذلك فإنه يعزل من أصيب به عما يكتنفه من أشياء، ويتيح

لمشاعره الانقطاع إلى هدفه. أما المبصر فيستهلك ما لديه من قوة الأبصار، بالنظر، وعيناه لا تكادان تستقران على شيء لكثرة ما يقع تحت شعاعهما من مرئيات فأنت لم تحرز ما أحرزت من تفوق، إلا بفضل عاهتك.

فقهقه طريف ملء شدقيه وقال مستخفا:

- لشد ما يضحكني رأيك يا صديقي، وإن جرح كبريائي، ومحا مجد طفولتي المبصرة، ولكنه يسوءني أيضا، لأنه آية على أن منهاجك في البحث، ما زال كمجاهل البيد، لا يستوي فيها السبيل، وسر ذلك، أنك لا تنظر إلى ما في أفق المعقولات بشعاع عقلك، كما تنظر إلى ما في أفق المرئيات بشعاع عينيك، وإنما تنظر إليها بعيني هواك وخيالك، فتعمى عن حقائقها، وقد تعفي سواك.

لقد عرفت أن من العمي من نبغ وتفوق، فتبادر إلى ذهنك أن العمى سر التفوق والذكاء، ولما كنت معتادا تعليل معتقدك، فقد اعتقدت انقطاع الأعمى إلى غايته، واستحالة قوة الإبصار لديه ذكاء، فأضفت إلى وهمك الأول وهما آخر

يزيده تعقيدا، ولو أنك فتحت عينيك وأجلت فكرك في الواقع، وحقائق الأشياء، لما احتجت إلى حشو دماغك بالأوهام، بل لرأيت أن من المبصرين من نبغ، وتفوق، وقلت إن الإبصار كالعمى منشأ التفوق، والذكاء، وحينئذ يتساوى في نظرك هذان العاملان من حيث أثرهما في مضاعفة الذكاء، أو إضعافه. فلا تجود على أحدهما بما ليس فيه. فالعين والأذن، أو دونها، وسيلة من وسائل الاتصال بالعالم الخارجي، وقوة الإبصار لم تمنح لها إلا لتأدية هذه المهمة. فإذا بطل عملها وغابت عنها في وظائفها وسائل أخرى، كان من البداهة أن يتحول ما فيها من قوة إلى تلك الوسائل، وليس إلى الدماغ، فقوة الإبصار لا تستحيل ذكاء كما تزعم بل لمسا وسمعا كما أعلم.

وإذا كان ما يبلغ أذى الأعمى من أصوات خارجية، لا يعدل ما يقع تحت سمع المبصر، وبصره من مسموعات ومرئيات، فإن ما يضطرب في عالمه النفسي الداخلي من خواطر وأحلام، يقوي ما يضطرب في عالم المبصر، ذلك بأنَّه أبدا هائم ساهم، لا يكاد انتباهه يستقر على خاطر من الخواطر أو فكرة من

الأفكار، فهو هذا كالبصر، أو أكثر منه عرضة لشرود الفكر، وزوغان الانتباه.

ولكن، مالي أحاججك بما لا يقع تحت حسك، ولا يبلغه اختبارك. ألم تبصر بعينيك، وتسمع بأذنيك، وتلمس بيديك، عميا ليسوا على شيء من الفطنة والنباهة؟ ألا تذكر رفيقنا رشيدا ذلك الرفيق المسكين، الذي لم يكن يستوعب درسه، إلا بجهد جهيد، ولا يستظهر سورة حتى ينسى السورة التي سبقتها إلى حافظته، مما جعل الشيخ يحمله بين الفينة والفينة على الإعادة، ويحملني على تحفيظه ما نسي.

بلى أنت تعرف كثيرا من العمي الخاملين، وتذكر غباوة رشيد، ولكن بربك قل لي أين عقلت؟ بل أين إدراكك؟ لتكذب ما رأت عيناك، وسمعت أذناك، ولمست يداك، بما حاكت مخيلتك من أوهام؟ أغبي أنت؟ أم أنت من أولئك المبصرين الذين تعودوا مكابرين أن ينسبوا إلى عاهتي العجائب حين أفوقهم، والعجز حين أنافسهم. إن كنت الأول فما أجملك من متفلسف، وإن كنت الثاني فما أظلم نفسك وأزرى مقصدك، وسواء أكنت هذا، أم ذاك، فلن أكون عرضة لبحثك،

وطفولتي البصرة المتفوقة لما تغرب عنك، فلا مبرر إلى تعليلك ما أصبت من نجاح بنازلة هي أحرى بأن تضوى بها الألمعية، وأؤكد لك، أن تفوقي مبصرا، وكفيفا، لم يكن قطّ نتيجة ما يُنسَب إليّ من ذكاء، بل هو نتيجة طموح ورغبة في التَّفوّق على الأقران، فما أذكر أنّي فكَّرت في أمر من الأمور إلَّا أردت أن أكون الأوّل فيه، فما خيّب الله رجائي.

كانَ القطار كالعاصف الهبوب، يطوي الأرض طيّا ساعة كان طريف يفيض في حديثه، فما قطعنا عن الحديث غير صوت القاطرة تعلن وصولنا المحطة.

أنين

خيل إليّ، حين احتضنت المدرسة الخيرية طريفا، وخصصت له مرتبه، أن ضمير الزمان استفاق من وسنه، فأقبل عليه يواسيه، ويضمد جراح فؤاده، ولكن أنى للدهر أن يستقر، ويستمر في إنصافه، ما دام كالحسناء النفور صدا ووصالا، وما دام كل ما يكسب الإنسان من خير في هذا الوجود يوقظ كامن الغيرة في صدر أخيه، ويحدوه غالبا إلى اغتصاب هذا الخير أو اختلاسه من يده ولو قاده ذلك إلى اقتراف الآثام.

فما كاد طريف يستمتع بقطوف ما أصاب من نجاح، حتى انقلب أنسه وحشة، وصفاؤه كدرا، وتملكه يأس مرير، يأس أظلم الدنيا في قلبه كما أظلمتها الأيام في عينيه، يأس جعله يصعد كل يوم بعد فريضة الفجر، إلى مأذنة الجامع الكبير، ويضرع من هنالك إلى الله بجاه القرآن المجيد، الذي يحمله في صدره، وجاه نبيه المصطفى عليه السلام، أن يرأب صدع نفسه، و تفتت قلبه، يأس حصر شعوره ، وفكره، وخياله، في آفته المقامة، وأهاب به إلى أن يسائل نفسه آناء الليل، وأطراف النهار، عما جنت يداه حتى تذهب الأيام بنور عينيه، وتعوزه في كل أمر من أمور الحياة لعيون غيره، بل عيون جبينه ويديه ورجليه، يأس، ما أكثر ما دعاه

إلى أن يردد: "يؤلم المبصرين يا إلهي، أن يمكثوا ساعة أو بعض ساعة في مكان مظلم، وها أنا في أيامي كلها، في ظلمة الزمان، والمكان، رباه ما أظلم الظلام وما أمض حاجة الإنسان إلى الانسان، بل ما أشد لطفك بعبادك يا ربي ، وما أعظم رحمتك التي وسعت كل شيء، فارحمني يا إلهي وابعث النور إلى مقلتي، حتى أرى وجهك، وأستغني عن هؤلاء الرفاق الذين تألبوا عليّ بعد تفوقي عليهم، واستعصوا عن إسداء المعونة التي كانوا يسارعون إلى تقديمها إليّ.

بيد أن هذا اليأس القائم في نفس طريف استحال أملا مشرقا، ووجوها يراها، ومناظر يبصرها، وكتبا بطرفة عين يلتهمها، بل دنيا جديدة يعيشها ويتملأ منها، حين علم أن طب العاصمة أقدر على شفائه من طب المدينة، فأزمع الرحيل إليها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ وهو لا يملك ما يبتاع به النور.

إن نور العين يباع في هذا الوجود كما تباع النوى ويباع كل شيء من الأشياء التي خلقها الله للإنسان، فاحتكرها الإنسان من كله لبعضه، وأقام دونها العرف، والقانون ووجدانه المدخول رتاجا،

فتضاعف حزنه، وأذكي أوار أمله، أوار يأسه، إلى ان كان في العاصمة، وأجمع أطباؤها على أن يد القدر رفعت عن عينيه يد الانسان؛ فانصدع قلبه وغاض في صدره ذلك الأمل الذي طالما دغدغ خياله، ومناه بما تشتهي عينه من مرئيات.

إلا أن طريفا ليس ممن يطيلون البكاء وراء أشلاء الأماني وأشباح الأحلام، فلما اقتنع بعجز الطب عن إحياء عينيه، أذعن للواقع، إذعان من يؤمن باللوح، وحكمته، واعتزم ألا يفكر منذ ذلك اليوم بأنه كفيف وبأن سواه مبصر، كأن العمى والإبصار ليسا مظهرين من مظاهر الحياة، وحقيقتين من حقائقها الخالدة، ولكن أي ضرر في ذلك ما دامت سعادة المرء في هذه الدنيا فيما يعتقد وما يتوهم، وما دام في المدينة المفتونة بحب الغريب من الأفاضل، من يضعون عيونهم، وأفواههم بين أذني طريف، ومن الفاضلات من تأمر ابنتها بأن تترك العجين الذي بين يديها لتقرأ له ما يحمل من كتب ودفاتر، بل ما دام طريف ثاب من العاصمة براحة اليأس، واستعاد مهجته الفقيدة، فانطلق يجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها في عثرات الوحول، وقصف الأنواء، وعصف الرياح، يستقرئ أخدانه، ومعارفه، فتنطبع أصواتهم في حافظته

انطباعا، وينهج إزاء رفاقه، كلما تعاونوا على إخفاقه نهج دهاء وفطنة، فيجتذب إليه من يشرح لهم ما عسر عليهم من قواعد اللغة العربية، والأجنبية، ويقص التاريخ عليهم مقابل إشراكه في دروسهم، وتفهيمهم إياه نظريات الهندسة المسطحة بخطوط وهمية يرسمونها بالأنامل على كفه، فاستطاع بذلك أن يحافظ على مكانته المرموقة في المدرسة، وعلى مرتبه مما أمض رفيقين اثنين من رفاقه كانا يطمعان في مرتبه فلك يجدا بدا من إغلاظ القلوب عليه شأننا معاشر الشرقيين حيال المتفوقين منا في شتى ميادين الحياة.

ولم يهتديا في تلك البيئة الدينة إلى سبيل أقرب؛ تناولا لإدراك غايتهما من وصمه (بالزندقة)، فوصماه بها، وانبثا في أحياء المدينة يلفقان على لسانه ما يلفقان، ويؤكدان لكل من يثق به، ويدرأ عنه التهمة، أن تقاه المتجلي إلى حد التصوف لم يكن إلا رياء، دونه الكفر في إفساد الدين ، وهدم أركانه ، كأن قيام الليل، وصيام الخميس والإثنين في نظر ذينك الأفاكين من تعاليم ابن أبي سلول، وكأن بذ الأقران أجل خطرا على شريعة من بذ الخلق، واستقر فوق البشر، ودون الله، من نفسيهما الصغيرتين اللتين لا

بد للمروءة أن تنتحر في كنفهما، وكنف أمثالهما من ذوي الأهواء لو لم يؤيدها الله في كل زمان، وفي كل مكان برجال أكبر معدنا ، وأنبل مقصدا.

غير أن من يسمع يخل، ولا بدع أن يؤمن أيضا، إذا كان قريب عهد بالضجة التي أحدثها في الشعر الجاهلي ذلك الكتاب الذي كان إذ ذاك ملء الأفواه، والأسماع، وكان صاحبه يتصل آفة كأبي العلاء بالمفترى عليه.

فآمن قسم متزايد من أهل المدينة بما افتري على طريف، وانقلب ما كانوا يعلنون، وما يسرون له، من عطف وإعجاب، نفورا واشمئزازا كوّنا حوله جوا من الاضطهاد.

على أن هذا الجو الخانق، وإن أغص طريفا، وأوشك أن يقضي على مشاعره ومواهبه، فإنه لم يحل دون سحق غريميه، بفضل من لم يخدع بالأراجيف من العلماء، والوجوه، والأساتذة، والتلاميذ، والشبيبة المثقفة. فإذا أساءت المدينة إلى طريف عن طريق اثنين من أبنائها، رفيقين من رفاقه، ومن شاركهما سذاجة في الافتراء عليه والوشاية به، فقد أسدت إليه من المعروف ما لن يمحوه

الدهر من قلبه وضميره، كيف لا وهي التي أتت به من القرية، إلى المدينة وأرسلته بعد نيله شهادة مدرستها الخيرية، إلى كلية من كليات العاصمة، إلى كلية، إن قلت فيها: إنها أسرة نبيلة في كنف أب نبيل قلت صوابا. وإن قلت: إنها مصنع الرجولة والأريحية قلت صوابا، وإن قلت، إنها مشتل من مشاتل الوطنية، والدين، قلت صوابا، وإن قلت إنها مأذنة العروبة التي من قلبها صوتها تنادى قلت صوابا، وإن قلت إن بنيها جيش يتقد إيمانا بالأرض والسماء قلت صوابا، وإن قلت إن كل ما فيها خفقة من قلب مديرها الطبيب الأديب وإشعاعة من عقله قلت صوابا. فلا تعجب إن اجتذبت طلبة العلم، والدين، والوطنية من أقصى العراق شرقا إلى أقصى المغرب غربا، وبثتهم في مواطنهم بعد طبعهم بطابعها العربي الصميم رجال رسالة وجهاد. ولئن غمر مديرها الجليل طريفا بعطفه، ورعايته، فقد أمن - في كنفه، وظل الكلية - أن يمكر به الزمان والإنسان.

العَينانِ بالوَكَالَةِ

كان طريف، على اغتباطه بالكلية، وتعلق قلبه بالعاصمة وحياتها الصاخبة، دائم التلهف إلى مسقط رأسه، يحن إليه حنين المستيقظ إلى حلمه.

فلما انقضى العام الدراسي، وانتشر الأساتذة والتلاميذ فوق الجبال، وعلى شطآن البحار، وفي بطون الأودية والوهاد، وبين الربى والسهول، ودع طريف أحبابه ومعارفه واتجهنا معا في القطار إلى مجالي طفولتنا وصبانا.

وما إن غادرنا المحطة، وركبنا المهيع المؤدي إلى القرية على الأقدام حتى أومأ إليّ بالصمت رجل لا أعرفه ثم أقبل على طريف يصافحه بحرارة من غير أن ينبس ببنت شفة، فتهلل وجه طريف بشرا، وصاح مرحبا أهلا بأبي أحمد، فدهش الرجل، واندفع يطري ذكاء طريف، ومواهبه، لمعرفته إياه بعد طول السنين، ولما انصرف بادرته قائلا:

- لا مناص من سؤالك يا طريف. فقاطعني قائلا:
- لقد توفرت لدي شتى الأسئلة منذ مغادرتي القرية حتى أن من الفضوليين من لم يتورع عن سؤالي كيف أحسن تناول

الطعام، فلا أضع اللقمة في أذني أو ذقني، فهان عليّ بعد هذا الفضول الفدم، كل فضول وأصبحت لا أستسمج سائلا أيا كان لونه، فافض بأسئلتك السخية ولو عن كيفية تنفسي.

- قلت عفوا عفوا يا طريف، إن بين الفضول والسخافة فرق، وإني وإن أكن فضوليا مزعجا فلست بسخيف.
- قال: دع هذا وامض في سؤالك فليس في العالم سخيف واحد يعترف بسخفه.
- قلت: كيف كان الأمر فنبئني كيف عرفت هذا الرجل مع أنه لم يحدثك، ولم تجتمع إليه منذ أمد.
- قال: ومن أعلمك إني عرفته قبل أن يتحدث.
- قلت: لست بأصم ولا ممرور.
- قال: ما عنيت ذاك، ولكن أؤكد لك أني ما عرفته قط قبل أن يتكلم وكل ما تستغربه هو أن والد صديقنا رشيد أخبرنا أمس حين زارنا في الكلية بأن نجله أبا أحمد سيأتي المحطة فجر هذا اليوم، خلته هو حين صافحني. وظن هو حين دعوته باسم سميه أني عرفته، وأني لا أرتاب في أنه سيتحدث عن هذه المصادفة الطريفة بإعجاب وإكبار، وأن الذين

سيسمعونها منه سوف يشاطرونه إعجابه وإكباره، كما شاطرته أنت، ولو أنه على مثل أدب الجاحظ، أو شكسبير، أو دوستويفسكي، وأندادهم من ذوي الأقلام الخالدة، وأودع وهمه هذا أثرا من آثاره لغدت المصادفة التي جاءت الساعة اتفاقا، حقيقة خالدة من حقائق التاريخ، وخارقة مقرونة باسمي أبد الدهر بل ربما استحالت مع الزمن معجزة من معجزات العمى وآية على نبوغ كل كفيف، ويلذ لي أن أنبئك في هذه المناسبة، بأن أكثر الخوارق المنسوبة إلى عباقرة المكفوفين، لا تعدو في جوهرها عدو هذه المصادفة، فأي عقل مستنير يستطيع أن يطمئن مثلا إلى تلك القصة الغريبة التي يروونها عن أبي العلاء ويزعمون فيها أنه قال: "ارتفعت الأرض أم انخفضت السماء، لا لشيء إلا لأن جليسا من جلسائه انتهز فرصة قيامه من مقعده فدس تحت طنفسته رقعة من الورق، إن هذه القصة الذائعة في مجتمعنا العربي، إن وقعت، فإنما تدل على أن أبا العلاء سمع خشخشة الورق فداعب جلساءه، ما أثار في نفوسهم الدهشة والإكبار.

على أن طائفة من تلك النوادر، لا تنبو عن العقل، ولا تصطدم مع الواقع سوى أنها وإن بدت لك خارقة للعادة فإنها ليست كذلك. وما أكثر ما يحدث ما يماثلها للمكفوفين، ولن أحاول أن أثبت لك ذلك بالحجج، إذ في مقدور كل ذي حجة أن يجعل ببلاغته الباطل حقا، والحق باطلا، بل عن طريق المشاهدة، وهي إن لم تكن أوجه السبل فأمثلها بلا ريب، لتميز الحق من الباطل.

ولا بأس أن نستهل حديثنا بحقول الذرة البيضاء المنبسطة على جانبي الطريق.

وهنا أخذ طريف يصف تلك الحقول حقلا حقلا، ويبين ما طاب منها حملا وما لم يطب، بيانا لا يقل عن بيان أنبه المبصرين حتى خيل إليّ غير مرة أن هواء الوطن ورائحة تربة الآباء ردا إلى عينيه الضياء. ولما دخلت مزرعة نسيب من أنسبائي، كي أحمل شيئا من البطيخ والقثاء لنطعم منها في الطريق ونبترد، ظل طريف يتابع السير وحده: منحرفا عن الصخور، وأكوام الحجارة، ملتويا مع الطريق أنى التوت وتعرجت. وحين هبطنا

القرية وتوافد علينا المرحبون، أخذ يستقبلهم، ويدعو كلا منهم باسمه سواء في ذلك من حياه جهارا ومن اكتفى بمصافحته دون كلام، ومن لم يحيه ولم يصافحه في بعض الأحيان.

فقلت له إذ خلوت به: لعل ما شهدته منك في الطريق والقرية ليس من لون المصادفة التي كانت هذا الصباح.

قال: "كلا يا صديقي إن ظاهر ما رأيت لا يختلف عن باطنه وإلا لكانت حقائق هذا الوجود كلها في اعتبارك سلسلة مصادفات، وهو ما لا يقره عقل ولا يطمئن إليه وجدان. إن المصادفة في تاريخ الإنسان والحياة من الأهمية ما لا تستطيع أن تتصوره أنت، ولا أنا، ولا أي إنسان سوانا، ولكن مما لا يحتمل المرء، أن المصادفة ليست كل شيء، ولا علة كل شيء، فأنا أميز الذرة الجيدة من سواها، وأساير الطريق في استقامتها وتعرجها كما أميز الناس بعضهم من بعض.

فقلت وكأني أسبق من شدة الدهشة لسانه إلى فكره: بالله عليك إلا حدثتني كيف تميز الذرة الجيدة من سواها؟

قال: وأنت كيف تميز الذرة الجيدة من سواها؟

فقلت متضاحكا: إني أبصرها فأعلم حظها من الجودة والرداءة؟

قال: وأنا أسمعها فأعلم حظها من الجودة والرداءة، ذلك بأن الخفيف المنبعث عن تماوج سوقها، وتدافعها أمام الرياح والأنسام يختلف باختلاف حملها. فإذا كان حملها طيبا مباركا كان الخفيف ثقيلا على السمع، وإلا أتى خفيفا ناعما لا يكاد يبلغ الأذن، حتى يذوب حيالها. أما الطريق، فأسايرها في استقامتها وتدرجها بما الأشياء التي تكتنفني فيها من هينمة على النفس وضغط على الحواس، يختلفان باختلاف مادتها وكثافتها فلدي الجدران، والأشجار، والأبواب والهضاب، وسائر النواتئ، أحس بهينمة ثقيلة وضغط شديد. ولدى أفواه الشوارع،

والمنعطفات، والأبواب، والمنخفضات، وسائر الفجوات أحس بهينمة متناهية الضعف وضغط لا يكاد يوجد. من أجل ذلك تراني دائما وأنا أمشي منفردا مطرق الرأس متلفتا يمنة ويسرة كما تراني حائرا متعثرا في الأماكن المزدحمة بالمارة، والمركبات، وصفير الرياح، وما ذلك إلا لأني أتلمس بأذني وحسي ما في طريقي من حواجز ومنعطفات رغبة في تجنبها أو مسايرتها، ولأن كل الجلبة تستهلك جل تيقظ سمعي، وتحسسي، وتصدني ضبط نظام مشيي.

ولعلك تفطنت مما حدثتك، إلى أن شجرة أبي العلاء الشهيرة لم تكن إلا أسطورة، كأسطورة رقعة الورق إذ ما كان الكفيف مرهف السمع والحس كشيخ المعرة أن يحني رأسه تحت جرم زالت هينمته بزوال مبعثها، وإن كان ذاكرا لموطنها الفارق بعد طول السنين كما يقولون، اللهم إلا أن تكون إحدى دعاباته أو دعابة مخترعها.

وأما معرفتي لمن جاء من أهل القرية للترحيب بناء فعائد إلى أني أميز الناس بعضهم من بعض بأصواتهم أو

أشكال أكفهم أو تنفسهم، إلا أن أيسر الحالات لمعرفتهم هو ذلك الصوت الذي يتخذ الألفاظ والتعابير اللغوية أداة الأعراب عن مقاصدهم، وأؤكد لك لو أن أبا أحمد الذي التقيناه هذا الصباح والذي عرفته في قرية المدعوين إخوة أمي - بادرني بالتحية كما تقضي اللياقة عليه مع أمثالي لما عزت علي معرفته، ولو أنافت غيبته عني على غيبة المنادي عن أبي العلاء.

- قلت: لا ريب أنك نادرة يا طريف!
- قال: بل فتى يا صديقي كفت الأيام عينيه عن العمل فذابت عنهما أذناه ولمسه، إن تعرف نفسك إلى الناس والأشياء، يقوم بالأشكال والألوان، ووسيلتك العظمى إلى ذلك عيناك، أما أنا فأستعيض الأصوات عن الألوان: وتتعرف نفسي إلى الكائنات بما ينبعث عنها من اهتزازات كالكلام، والحفيف، والتنفس، ووقع الأقدام، فالصوت عندي كالضياء عندك، مفتاح التعرف والسبيل الأهم الذي به اتصل بالوجود، فأميز أسامة من هيثم ، وهيثم من شادية، وهو الذي به أفرق بين الحسن والرديء من الذرة البيضاء والصفراء وسائر الحبوب القائمة

على سوق مرتفعة ، وهو الذي به أمشي كالسهم وحدي، في مناكب الأرض غير متكئ على محجن ولا مستعين إلا بالله وحسي وأذني المرهفتين اللتين هما عندي، وعند كل كفيف عينان بالوكالة.

نَدِيمُ الأموَاتِ

ما أكثر ما رن في أذني طريف، وما انطبع في حافظته في القرية، والمدينة، والعاصمة من ألفاظ، ولكن ما أقل ما بلغ من تلك الألفاظ قرارة نفسه، وامتلك زمام ضميره وميوله.

ولعل قول من أنباه من المعلمين لمقدرته على دراسة الحقوق، وذهابه فيها شأوا بعيدا، من أروع تلك الألفاظ القليلة فتنة لنفسه، وخياله وتوجيها لعقله، ونشاطه، فما كاد طريف يلم بهذا الأمر، حتى هام بالحقوق هيام المتني بالسيادة، والأفغاني بالجامعة الإسلامية، وجزم أن لا خير له في هذا الوجود، ولا رجاء ما لم يدرس هذا العمل، ويصبح علما من أعلامه، وإماما من أمته.

ولما هزت الأحداث السياسية، في غضون وجوده في الكلية، ناحية من نواحي أقطارنا العربية، تاقت نفسه إلى تلك الناحية كما تاقت نفس عبد الله بن أم مكتوم إلى القادسية، فاتجه إليها ماضي العزيمة، متوثب العواطف، منطلق الخيال. ليقبس من جامعتها القومية، ثقافتنا العربية الخالصة، والحقوق خاصة، وليقفل إليها بعد تمام تحصيله في أوروبا أستاذا للحقوق، بل

ليقف قلبه وحياته على خير معهد يضمن تحقيق طموحه، ومساهمته في رفع الضيم عن بلاده.

إلا أنه ما كاد يسمع جواب رئيس الجامعة، حتى بهت، وظل المصعوق واجما جامدا في مكانه، لا يتحرك، ولا يتكلم إلى أن نهره الرئيس قائلا:

- أأصم أنت أم تريد شيئا آخر؟ فتمايز من فرط الغضب، وهم بغسل الإهانة بالإهانة ، لولا أن تنبه حالا إلى أن انتصاف الضعيف من القوى ظلم، وأن الذود عن كرامته جناية، فانصرف قريح القلب، دامع العينين، محطم الأحلام، مشبوب الغيظ، يتمنى بجدع الأنف لو استطاع أن ينقض على ذلك الرئيس، وأن يمزقه أشلاء.

ويحدث نفسه قائلا: "أحق أن أروع ما انعقد في صدري من أحلام يذوب ويتلاشى على شفتي طبيب أخصائي بمعالجة العيون؟ أحق أن معهد الحقوق في جامعة محراب العروبة وسدها لم ينشأ إلا لتعليم المبصرين، كما يريد هذا الرئيس، وأن ليس لي سوى أن أمتهن مهنة تشييع الجنائز، ومنادمة الموتى، كما يريد هذا

الرئيس؟ لا، لا. إن الذين أوقدوا ببلاغتهم نار العروبة في كل صدر عربي، وأقضوا بإيمانهم مضجع من كانت برلين نفسها ملعبا لسنابك خيولهم، لن يسكتوا عن ظلمي ولن يعجزوا عن تسجيل اسمي قسرا في معهد الحقوق، ولو كان خصمي منيع الجانب، محترم الهوى والشهوات".

ولكن، أنى للحق أن ينتصر، وللعدل أن يفوز، في مجتمع يرفرف فوق ربوعه علم غريب.

إن تدخل من استنجد بهم طريف من أركان المدينة والعاصمة، ومحراب العروبة لم يغنه فتيلا، وما كان له أن يغنيه، ما دام رئيس الجامعة يومئذ مسلكا واسعا من مسالك السلطة الأجنبية إلى ضمير الشهب، فطوى طريف على لظى ثمانية عشر شهرا من السعي العنيد، وارتد من محط طموحه، ومنهل أحلامه، كئيبا ليس في صدره قلب، ولا في وجهه دم.

فقلت له، والألم يحز في قلبي لكثرة ما لاقى من أوصاب وهموم.

ويحك يا طريف، أليس الأولى بك أن تقنع من العيش بالكفاف، فتعود إلى مسقط رأسك، وتستقر فيه بين أصدقائك، وأبناء

قريتك، إمام مدرسة، هادئ البال، من أن تجوب الفيافي والأمصار، غصيصا معذب النفس مقهورا؟

فقال: لو كنت أسعى وراء العيش لأخذت بنصحك، بل لما احتجت إليه يا صديقي، ولكني لا أطلب المعرفة عامة، والحقوق خاصة كسبا للرزق، وإنما أطلب ذلك، لأعلم بل لأغيب عبر الحقيقة، غيبوبة الشاعر عبر الخيال، شأن من شنفوا بالعلوم، فغدت المعرفة كل حياتهم.

إني أهوى الحقوق، وليس لي في الحياة سواها مأمل، ولا عن امتلاك ناصيتها محيد، وإني أدرك بعون الله مأملي، فليس يفوقني من سبقني من أقطاب هذا العلم، وأساطينه عزما ولا طموحا ولا شيء يصدني عن مجاراتهم، والسير كما ساروا، أليسوا بشرا مثلي؟ أليس بين بردي من العزم، والجلد، وشدة البأس وقوة الإرادة ما في أعطافهم.

قلت: ليس هذا غرضي يا طريف، ولكن لا يغيبك أن الناس جميعا كما قال جل المفكرين، من الشر جبلوا، وعلى اللوم والأثرة فطروا، وإنك لن تلقى منهم سوى ما لقيت من رئيس الجامعة.

قال: صه يا صديقي، لقد ظلمت بحكمك العمرين، والإمام علي، وصلاح الدين الأيوبي، وأشباههم من نفحات العدل المطلق الذين يفاخر بهم آدم الزمن والأجيال، فالبشر وإن لم يكونوا بفطرتهم ملائكة متخيرين كما ادعى بعض كبار المفكرين الغربيين، فإنهم ليسوا كما ترى أبالسة ملعونين، بل كان الناس ولا يزالون على ما قال لنا التاريخ وترينا المشاهدة والتجربة، كالأرض التي منها خلقوا وعليها نموا وتكاملوا. وإذا كان من الأرض وفيها على وفرة أشواكها، وصخورها للورد والماس مكان فإن الأريحية في أسرة آدم أيضا مكانا.

فإذا لم أجد في صدر رئيس الجامعة أثرا لهذه الأريحية، وصدقت فيه نبوءة مديرنا الفذ الذي نصح إليّ ألا أذهب إلى هذه الجامعة لإدخالي جامعة سواها لا تنكبا عنها ولا إيثارا لغيرها، بل اعتقادا منه أن "أولي أمرها ليسوا من أحفاد الوليد علم النجدة العربية، ومضمد جراحات الموتورين، فلن أعدم هذه الأريحية في لندن أو باريس، في برلين أو موسكو أو سواها من المدن الجامعية التي لا بد وأن أجد بين رجالها رئيسا بشرا"

وفعلا، لم يمض على مغادرة طريف الجامعة ووصوله الجامعة طويل أمد، حتَّى كان ينطلق كلّ يوم صباحًا من الكليّة إلى معهد الحقوق، ويعود إليها عند المساء فرحًا جذلان تغمره البهجة ويلهج قلبه بالشُّكر لله، والإكبار لذلك المدير العربي الإنسان خليفة الوليد العربيّ الإنسان.

مِيزَانُ الجَمَالِ

كان طريف مغرما بالحياة جدها، ولهوها، وكان يجد في أحضان الطبيعة، والتجول بين الربى والمروج، وعلى ضفاف الجداول والبحيرات، من الغبطة والابتهاج ما يثير عواطفه الفياضة، فيحس أنه يذوب شيئا فشيئا كالثلج تنصب عليه أشعة الشمس.

وحين هبطنا الحي اللاتيني في الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٩٣٢ وسجل اسمه في السنة الثالثة من معهد الحقوق، أخذ يختلف إلى حديقة اللوكسمبورغ، ومنصوري، وغابات بولونيا، وفانسان، وسواها من الحدائق والغابات المنتشرة في قلب العاصمة الفرنسية وضواحيها، تكتنفه غالبا عن اليمين وعن الشمال غيد يقطفن دوبكة الجبل، وزنبقة الشاطئ ويقدمنها إليه خصلا عاطفات باسمات.

وإني لجالس معه ضحى يوم من أيام الربيع، في حديقة اللوكسمبورغ، أمام فوارة متهامسة الرشاش، منسجمة الأنغام، إذ أقبل حيالنا سرب من الطالبات يتحدثن ورحن في فتنة الصبا والجمال، فهزني منظرهن الفاتن وأثار البهجة في قلبي، وكل

جوارحي فعز على ألا يشاطرني طريف هذه اللذة الماثلة، فقلت له متوجعا:

- ما أشقاك يا طريف! وما أبلغ حرمانك! تمر بك النعمة وأنت لا تحسها، ويتدفق من حولك الجمال ولا تدري به، حتى لكأنك تمثال ناطق، وكان الأوانس السائحات بين الخمائل الفينانة ، وحقول الرياحين المفترة، لا يرمين الناظر إليهن بأسهم ريشها الهدب تشق القلوب قبل الجلود.

فابتسم في وجهي ابتسامة عريضة وقال:

- ما أدراك أني لا أحس جمالهن، ولا تهزني فتنتهن، لعلك تحسب الشعراء الذين يفوقون البشر عمقا في إحساس الجمال، والاستمتاع بمفاتن الحياة إنما يدركون ذلك بعيونهم. لعلك تحسب القيسين، وجميل بثينة وأشباههم من المدلهين المفتونين، والحيارى المعمودين إنما عبدوا من عبدوا بعيونهم، ولكن مالي ولهذه الفلسفة التي إن استرسلت فيها أسترسل في حديث كالحب ليس له نهاية، فلا كفكف من ظنونك آخذ بتوضيح بعض الجمال، خشية أن أضلك في حديثي.

إن المرأة لا تكون في عرف مواطنينا، ولا أستبعد أن تكون في عرفك أيضا جميلة، إلا إذا توفرت فيها الشروط المسجلة في أذهان العجائز والشيوخ، وكانت كما يقولون: "بيضاء اللوز لها عينان كالفنجان وفم كخاتم سليمان وأسنان كاللؤلؤة ووجه مدور على البيكار" وإذا قدر لامرأة إن اجتمعت فيها هذه الصفات عدا بياض البشر، قيل: إنها حلوة، لكن سمراء.

أما أنا فأستهجن هذا التعريف الذي يشوه وجه الجمال ويمسخ حقيقته وأعتقد أن المرأة الجميلة هي التي إن وقع عليها بصرك، مغنطت قلبك بأسرع من لمح البصر، وأفعمته غبطة، وراحت تداعب خيالك، وتطير بك إلى عالم الشعر والأحلام. وظني أن الموجة الكهربائية التي تحدث في النفس هذا الأثر المجيب، إنما تنبعث عن اعتدال أعضاء المرأة، وتناسب أجزائها، وإشراق لونها، وانسجام حركاتها.

والمرأة مهما بلغت من الفتنة، والسحر، والجمال، فإن هي إلا دمية لا هناءة بها، ولا شقاء، مالم تسلط عليها حرارة قلبك، وتضمها بأجنحة شعورك، وخيالك، فتطيران معا وقد ألهتها، كما

أَلَّه الوثني الصنم، هائمين في عالم الأرواح، يجمع قلبيكما الهوى المتبادل، وتصهر كيانكما العواطف المستعرة، فتذوبان، وتتلاشيان بنار الوهم، ويقين النعيم، فالبصير وإن رأى جمال المرأة بعينيه، فإنه لا يدرك هذا الجمال ولا يستمتع به إلا بقلبه، ذلك بأن القلب هو وحده الشاعر المستمتع، أما العين فليست لو تأملت، إلا جارحة مستكشفة يستعيض عنها فاقدها، جارحة أخرى، ويهتدي إلى الجمال بأذنيه.

تتكلم الفتاة، أو تضحك، أو تبتسم، أو تمشي، بقرب الأعمى فيعلم أن هنالك كائنا من الجنس الناعم، فإذا كان مشغول البال منصرف الذهن إلى أمر من الأمور ينتبه إلى ما أودعها الله من خصائص، وإلا ففي مقدوره أن يحس جمالها، ويتبين ما ينبعث عن شفتيها من صوت، حظها من الفتنة والجاذبية والأنوثة، وحذار ثم حذار من أن تتوهم أن الهادي إلى جمال المرأة جمال صوتها، فكم فتاة حسنت صوتا وعذبت حديثا لا تحرك قلبا، ولا تهز شعورا، فالذي ينبئ الأعمى عن جمال المرأة، ويدله عليه ليس الصوت نفسه، بل ما يحمله هذا الصوت في نبضاته من نبرات مختلفة الجرس و الأنغام. وما أخالك إلا مستغربا حديثي، ولكن

تيقن، أن المرأة كالزهرة يشع منها دائما معنى كالهالة، يحمل أطيافا جذابة أو أشباحا منفرة، فأنا أستنشق جمال المرأة من هذه الأطياف المشرقة الوضاءة، وأحسه كما تحسه أنت، بل كما يحسه أرق المبصرين شعورا، وألطفهم ذوقا، وأدقهم حسا.

قلت: لكنك لا تميز شقر الغاديات من سمرهن.

قال: ما خبرت ذلك ولا عودته حسي، وإن قيل لي أخيرا إن في العالم الجديد من العمى من يدرسون خبرة الألوان باللمس، ولكن ماذا يهمني إن لم أميز شقر الغيد من سمرهن ما دام جوهر الجمال واحدا، وما دامت النائية الحسناء فتاة ساحرة، تثب إلى قلبي وتشيع فيه النشوة، والسحر، والنعمى.

قلت: وهل تحس دمامة المرأة وتنفر منها كما أنفر؟

قال: ما أغباك يا صديقي أو ما أضيق تفكيرك، هل رأيت في حياتك إنسانا واحدا محبا للحق من غير أن يكره الباطل؛ ويهوى العدل دون أن يمقت الظلم؟ أم هل رأيت من يلتذ بحلاوة الشهد ولا يتألم لمرارة العلقم؟ أليس القلب كالعقل والوجدان ميزانا يزن

القبح والجمال كما يزن الوجدان الخير والشر؛ والعقل الحق والباطل؟

وما أن نطق طريف بهذه الكلمة حتى وافتنا رفيقة من رفيقاتنا الحسان، في معهد الحقوق، تتلطف إلينا متحدثة ضاحكة فاحتفينا بها، وانبرى طريف يداعبها بظرفه ونكاته مكبرا ذوقها النادر في اختيار هندامها، وما أكسبها مجولها الجميل من فتنة ورشاقة.

فقلت له بعد أن ودعتنا وانصرفت، يا عجبا، أتدرك أزياء النساء يا طريف؟

قال: أيدهشك ذلك يا صديقي؟ وقد علمت أني أستشف جمالهن من نبرات أصواتهن وأنغامها، كما أتبينه أحيانا من وقع أقدامهن، ألا تعلم أن المرأة المرتدية ثيابا أنيقة تنثني في مشيتها تثني الزنبقة في عبث الصبا اللعوب، وتسترعي بعزف خطاها ووسوسة حلاها الأبصار والأسماع، يقظة دائما لإغراء الرجل، وجذبه إلى شرك ما أفتنه من شرك!

ولما قال طريف هذه الكلمة كانت ساعة حديقة اللوكسمبورغ تعلن الثانية عشرة. فأسرعنا إلى المطعم العربي الجديد، حذر من أن يحرمنا الازدحام فيه المقاعد.

دُنيَا الإنْسَانِ

إن دنيا الطبيعة، دنيا الجداول والخمائل والورود، دنيا الشمس، أيام الربيع، والظل الظليل، إبان الصيف، لم تعرف طريفا عن دنيا الانسان، دنيا الفن، والبلاغة والنغم، دنيا التمثيل، والغناء، والموسيقى، تلك الدنيا الفنانة الساحرة التي سواها ابن آدم لنفسه، جعلها كما شاء خياله، و اشتهت أحلامه، ينتصر فيها الخير على الشر، والحب على البغض، و من الجمال على القبح، والنبل على المكر والدهان، فانطلق منذ استقراره بالحي اللاتيني يمتطي المترو والحافلات والسيارات ويطوف وحده حينا، وحينا معي أو مع رفيقة من رفيقاته على مسارح المثيل و محافل الموسيقى، ومواطن الأغاني، والصور الناطقة، يستمتع بما أبدع العقل الغربي، ونمق من أسباب المتعة، والنعيم.

بيد أن الغصص كانت تفعم صدره كلما رآني أقصد إحدى الحفلات الراقصة.

إن زمرة من الطالبات اللواتي توثقت بينه وبينهن أواصر المودة كن يدعونه إلى بعض الحفلات، التي تقيمها أسرهن، طلبا للمسرة ورغبة في تعارف الشبيبة الطامحة إلى الزواج، ولكنه كان يعتذر

دائما عن تلبية دعوتهن، لا تدللا، أو تقشفا، بل يقينا منه أن وجود فتى كفيف مثله في تلك الحفلات، مما يلفت الأنظار، ويدعو إلى التهامس، الأمر الذي يمضه مهما نبل مقصد المتهامسين.

فلما علم بوجود مرقص لا يؤمه من المبصرين غير النساء، نشط يتعلم الرقص حتى أجاد رقصة الفالس والتانجو، وما إليهما من الرقصات المعروفة، وأصبح منذئذ، ألزم لذلك المرقص من أهله، يخف إليه مساء كل ثلاثاء، لا يصده عن حفلاته امتحان ولا مرض.

ولعلك لا ترى بأسا في أن أصف لك إحدى تلك الحفلات التي شهدتها معه.

كان ذلك في أواخر الربيع، وكانت السماء في تلك الليلة صافية الأديم، والهواء سجسجا عليلا، وكانت الروضة التي تفصل المرقص عن الطريق فسيحة، تتخللها الأدواح اليابسة، والأحواض المتدفقة، والرياحين الزاهية، وتنيرها المصابيح الكهربائية الملونة، فتأخذ بمجامع المشاعر والحواس، وكانت الأوانس يتجولن في الروضة

وهن يتهادين ويعبئن ضاحكات متلفتات. فما أن أبصر بعضهن طريفا، حتى وثبن نحوه برشاقة وأحطن به محييات، مصافحات، يسألنه أن ينشدهن كالعادة أبياتا من شعرنا العربي الذي يطربن لأنغامه، وتوقيع قوافيه، فأنشدهن قطعا للأحمدين الأميرين، وسواهما، من أغاريد الفكر والقلب والخيال، فانتشين من النغم يخرج من روحه شعرا، وينصب في آذانهن سحرا.

ولما دقت الساعة التاسعة عزفت الجوقة الفخمة تفتتح الحفلة بلحن رائع من ألحان الفالس، التي تحمل المرء بأنغامها الأخاذة على الرقص حملا، فهب المدعوون إلى القاعة أفواجا تتدافع، وسرعان ما انتظموا أزواجا، يرقصون، ويمرحون، في هرج ومرج صاخبين.

أما طريف، فما كاد يتخطى عتبة القاعة، حتى اقتنصته وضمته إلى صدرها العامر عانس شمطاء مفرطة في الطول غليظة الجثة ناتئة الكرش، فارتعب وخيل إليه حين عجز عن تطويقها أنه يراقص الهم والغم الجاثمين في هيكلها الكريم، وكظم غيظه، وراقصها، باسرا، واجعا، علها تخجل منه وتخلى سبيله.

وفي الدورة الثانية، وجد نفسه جنبا إلى جنب مع العانس ذاتها. فاستعاذ من الشيطانة بالشيطان، وراح يراقصها، رقصة الساخط المتمرد، أملا بأن يفهم بالعنف والغلظة من لم تفهم باللين والإشارة. وفي الدورة التالية وهو على أشد ما يكون من الضيق، والضجر، والأمل، بانفراج الكرب، فإذا به لا يلقى بجانبه غير قاتلته، فلم يجد بدا من أن يدهس في الرقص قدمها قائلا: "عفوا آنستي ليس على الأعمى حرج" فأطلقت سراحه وانطلق يشارك المدعوين حفلتهم، حتى منتصف الليل، حيث انتشر نظمهم وانصرفوا إلى الروضة يتناولون طعام السهرة، والمرطبات، ويتجولون بين الخمائل والورود هانئين مغتبطين.

وما هي غير لحظات حتى استأنفت الجوقة عزفها، فماد المدعوون إلى القاعة وما زالوا يتنقلون بين القاعة، والروضة حتى رأد الضحى فتناولنا الفطور وانصرفنا شاكرين مودعين.

وما إن أجزنا الروضة وامتطينا السيارة، حتى ملت على طريف أسأله: إن كان يحب التمثيل والموسيقى حبه الرقص، أم يؤثره عليهما، فأجاب: "نشدتك الله أن تسألني يا صديقي عما أحب،

فما أحب، أجل من أن يحصيه قلم أو إنسان، بل سلني عما أكره وما أكره قليل نادر، لا يتجاوز اللؤم وخشونة الذوق.

إني أحب التمثيل والغناء والموسيقى، والسباحة وامتطاء الخيل ولعبة البريدج، والشطرنج، والبيلوت، وكل لون من ألوان اللهو البريء، كما أحب الرقص، إذ لكل لون مذاقه الخاص، فلا أدع لونا منها دون التمتع به، ما وجدت إليه سبيلا، ولو أني أستطيع أن أحسن الصيد كما تستطيعه، لما أحجمت مثلك عن مزاولته لحظة، فقلت أداعبه: ولكنك تحسن صيد الغواني يا طريف! قال مبتسما: ما أخبثك يا صديقي! ولكن ألم تشاهد أن بعض من تصيدت في الحفلة نقمة، لا رحمة، وشقاء لا نعيم. ومأتى ذلك أن المرء قلما يستطيع أن يتخير في هذا النادي مراقصته خلاف أندية المبصرين وحفلاتهم، حيث تجيلون أبصاركم في وجوه الغواني، فلا يراقص أحدكم إلا من يهوى. ونحن العمي مساكين نظل قابعين في مقاعدنا، نرقب حسن الطالع منتظرين من نشير إعجابها، فتتفضل بدعوتنا إلى مشاطرتها لذة الرقص. وقد يتبلد الحظ فلا يجود بمن تحيي النفس، وتطمئن إليها المشاعر، وقد تأتينا داهية من تلك الدواهي الكبار في الرقصة الأخيرة، فتذهب بهجة سهرتنا

ورونقها، فننقلب إلى منازلنا، ساخطين، متظلمين، تضيق بنا الدنيا وننقم حتى على أنفسنا. إلا أن إخواني العمي فطنوا إلى هذه الدواهي الكبار تنصب عليهم في ناديهم فاشترطوا استبدال الرفيقات في الرقصة الأخيرة أملا بتخفيف الأذى، وتوزيعه بين الجميع، ودأبي في هذا الأمر إن أعجبتني مراقصتي أمسكها مسكة الأعمى، أمسكها لا بيدي وإنما ببياني أسمعها قصة طريفة، أو نادرة غريبة أو فكاهة مستملحة، فتتعلق بي وتأبى مفارقتي ولا عيب، أليس الحديث العذب أحبولة الغواني، بل أليس البيان سحر الأفئدة والعقول ومسير الأمم والشعوب؟

وهنا وقفت السيارة أمام معهد الحقوق فترجلت منها ودخل طريف المعهد.

إِشعَاعُ النَّفسِ

كان طريف يهوى البحر، ومصارعة الأمواج، فما إن ودَّع العام الدِّراسيّ واستقبل العطلة الصيفية، حتى طفقنا نتنسّم حياة المتعة والانطلاق في ساحل الباسك؛ السّاحل الجميل الذي تهطل فيه الأمطار صيفًا فتلطف حرارة الجو فيه، وتكسو أرضه مطارف موشاة بشتَّى الورود والرّياحين، وما إن بلغنا "بيدار" ولذّ لنا سكونها الصّامت، حتَّى آثرنا الإقامة بها، ونزلنا فندقا من فنادقها القائمة بين الأعشاب على ربوة تطلّ غربًا على البحر، وتمتدّ في شرقها سلسلة من الهضاب، والحقول الخصبة الجميلة التي تعهدتها يد الخالق والمخلوق، فجاءت آية في بهجة المنظر وحسن الإنتاج.

ولما قصدنا البحر كان العلم الأحمر يرفرف على مدخل "البلاج" وكان المحيط الأطلسي شأنه في أكثر الأوقات هائجًا مضطربا، يدوي هديره في الفضاء دوي أصداء الرّعد في أمواج الغيوم، والرّائد البحري يطوف على المستجمين يحذّرهم التَّيّارات المختلفة.

بيد أن طريفا جريء مغامر بالفطرة، وأي امرئ طبع على الجرأة والمغامرة، يستطيع أن يعصي هواه ليعتصم بعقله، فلا يلقي

بنفسه إلى التيار، إنَّ اصطخاب الأواذي، وإنذار الرائد، وتحذير العلم، لم تردعه، فاندفع يغوص في اليمّ ويطفو، ترفعه موجة وتخفضه أخرى، وما تزال ترفعه وتخفضه حتَّى أدركه الإعياء، فانقلب على المتبارين والمتباريات من الخارجين على النظام والخارجات.

وكان بين هؤلاء الخوارج، يافع وسيم الطّلعة، مشيق القدّ، عذب المنطق، حلو الحديث، فلمّا أبصر طريفا، وسمع شدى من أنبائه، أنس به، ورغب إلى أن أقدمه له، فأخذته إليه وجلسنا على الشاطئ نتناول بالحديث شتى المواضيع، فرأيت فيه من الظرف واللطف وحسن المعاشرة، ما حببه إليّ وأدناه من نفسي. فما أن ودع وانصرف حتى قلت لطريف لعل هذا الرفيق الجديد أعجبك ونزل من نفسك منزلة حسنة، فهو لعمري ممازج لك وإنكما لتميلان معا إلى اللهو والتسلية البريئة. فنظر إليّ وقال متهكما: كيف لا ينزل من نفسي هذه المنزلة، وهو علم من أعلام اللؤم، وبطل من أبطال المكر والسفالة والخداع. لقد غرتك ألفاظه المنمقة، واستهواك كلامه المعسول وسحرك ما تظاهر به من نبل العواطف وكرم الشمائل، فأحببته وراحت نفسك تتوق إلى

محادثته، ولو أنك تفحصت أسارير وجهه وأمعنت في عينيه، لما اقتنصك بشباك لسانه، وسراب عواطفه، وحركاته حتى أصبح قادرا على استثمارك.

إن اللسان طيع مرن؛ في مقدور صاحبه أن يقلبه كيفما شاء، وينطقه ما شاء، فلا تثق بما يقول، ولا تصدق ما يروى؛ بل انظر دائما إلى العينين، فالعينان صادقتان؛ لا تكذبان، وأمينتان لا تخونان، وشفافتان لا تحجبان ما وراءهما مما سيكون من أمر صاحبهما وما كان.

يقينا إن الأقدمين الذين قالوا: إن العين مرآة النفس لم يخطئوا؛ فكل ما يحمل المرء بين جوانحه من خصال وعواطف تنعكس جلية على عينيه وتنطلق مع النظرات، إن النبل، واللؤم، والحب، والبغض، والنباهة والغباوة، وما إلى ذلك من مظاهر النفس، لتنطق كلها

بطرف العين وتتكلم بشعاع النظرات، فهذه الصفات على ما أعتقد كائنات حساسة تنمو أو تضعف، تصفو أو تكدر تبعا لعامل الوراثة والبيئة، وحال الجسم وسوى ذلك من الأسباب

المعروفة والمجهولة، واعلم أن راسبوتين وغيره من أمراء الفراسة الذين ملأ اسمهم التاريخ لم يكونوا يتعاطون السحر أو يناجون الأبالسة، بل كانوا رجالا أدقت الطبيعة ملكة الحس، والملاحظة فيهم، فغدوا بنظرة يلقونها على عيون من يلقون يستكشفون سرائرهم. فلو كنت واعي القلب؛ دفيق الملاحظة، لقرأت في عيني رفيقك ما تنطوي عليه نفسه ولاستشففت خبث روحه، من نظراته، ولكن من أين لك ذلك، وأنت من أغبياء المبصرين الذين أنار الله عيونهم وأظلم قلوبهم، فباتت عيونهم:

كالسيف يزهى بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل

لقد خاطبتك نظرات هذا الرفيق، فلم تفقه منها خطابا، ولم تدرك لها جوابا، وما ذلك بعجيب، فقد ظلت الجراثيم، وهي تملأ الكون أجيالا لا وجود لها في نظر العلماء، والجهلاء والعمي منهم والمبصرين، على السواء، حتى قيض الله للبشر "باستور" ذلك العالم الضخم الذي كشفها لهم ووقاهم شرها المستطير.

وخليق بك أن تعلم أن إشعاع سرائر النفس يختلف لدى الأفراد اختلافا بينا، فمنهم من تبدو خصاله ضئيلة؛ هزيلة، ومنهم من يرسلها أمواجا كثيفة، شديدة الفاعلية والتأثير، وقد تتغلب إحدى الخلال على سواها فتحجبها عنا وتستلفت هي وحدها انتباهنا، شأن لؤم هذا المخلوق، الذي طغى ما لديه من فضائل ونقائص، وانطلق يتطاير كالشرر من عينيه وفيه، حتَّى خلتني أبصره في نبرات صوته كما تبصره في إشعاع عينيه.

فقلتُ له: "لك الويل يا طريف، ألم تنهنِ السّاعة هذه عن أن أصغي إلى أقوال النَّاس، وتتَّهم اللِّسان بأنَّه ممثل ماهر يلبس لكل حال لبوسها ويتفنَّن في اختلاق الأكاذيب وتنميق الأباطيل"

قال: "ما أغلظ ذهنك يا صديقي وأسقم فهمك؛ إنّي حذَّرتك مكر اللِّسان وأراجيفه، لا صوت الإنسان وأحاسيسه، فالصَّوت المنتظم الذي يعبرِّ عنه المرء عن مقاصده يتألَّف من نبرات ونغمات لا عديد لها، فهذه النَّبرات وتلك النَّغمات هي التي تكشف كالنّظرات عمّا له من مزايا وعيوب، وترينيها قويّة أو ضعيفة،

وفاقًا لقوّة الإشعاع أو ضعفه في نفسه. ذلك الإشعاع الذي يتجلَّى في كلّ حركة من حركات الإنسان، بل في مجرد وجوده.

بيد أني لا أستخدم حسي، ولا أجهد فكري في نقد الضمائر وتحليلها إلا نادرًا، فالعمر عندي أعزّ من أن أريقه بالنَّقد والتَّحليل. إنّي عشيق الحياة، أحبّها، وأذوب شوقًا في حبها، فَلِمَ لا أوجِّه قواي كلّها إلى اجتناء قطوفها السّامية بدلا من استنفادها في استشفاف نفوس لا يوحي أكثرها إلى غير ما أوحى هذا العمل الخبيث من كراهية واشمئزاز" فقلت له: "لا ريب في أن المنطق الصّرف حليفك يا طريف، ولكن يعزّ عليّ أن أرى رأيك في فتى مهذَّب معشار كالذي نتحدَّث عنه ما لم تنبئني بذلك فعاله، لا شعاع عينيه ونبرات صوته". فلمّا خبرته تيقَّنت أنَّ هذا الفتى المهذَّب المعشار، وغد من الوزن الثَّقيل، وإنَّه توصَّل يوما ما بظرفه ونبل مظهره إلى قلب الأمّة التي ينتمي إليها، وصوله إلى قلبي، فإنَّه لا محالة ماصّ دمها، كما مصّ استافسكي دم المجتمع الفرنسيّ وقوّض أركانه.

وحينئذٍ قلتُ في نفسي: إذا قال المبصرون إنَّ العين مرآة النَّفس، فإنَّ من حقّ العمي أن يقولوا: إنَّ الصَّوت صداها، بل مجهرها".

أمّا طريف فما زال يصارع أمواج المحيط، ويداعبها حتَّى الرّمق الأخير من الصَّيف، حيث قفل إلى باريس تحوطه زمرة من الأوانس اللاتي تعرّف إليهنّ، وتمكَّنت بينه وبينهنّ روابط الألفة والمودَّة في ساحل الباسك.

الصَّرِيعُ

إذا كان في صدر طريف قلب شاعر مفتون بالحياة. والطبيعة والجمال. فإن وراء جبهته دماغا طلاعا إلى المعرفة واستشفاف كنه الحقائق، وإذا كانت العلوم على اختلاف ألوانها ومراميها أروع ما يجتذب نفسه من متع الوجود، فإن لطائفه منها من الروعة في نفسه ما يذهله عن نفسه، وينسيه المتع والوجود. وإذا كان لعوبا ممراحا نزاعا بفطرته إلى اللهو والعبث البريئين. فإنه طموح عزوم لا يتهاود في مراده، ولا يرتضي فوق شأوه شأوا. وإذا حالت ظروف كالقدر قاهرة دون تجوله في إنجلترا، وألمانيا، وروسيا، وإيطاليا، واقتباسه شذى من حضارات تلك الأمم وثقافاتها، فإنه لم يستهلك وقته بباريس كما قد يتبادر إلى ذهنك في مطاردة اللهو وتصيد الكواعب، فهو منذ حلوله في الحاضرة الفرنسية، يتنقل كالسلع بين مدارج معهد الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم السياسية، ويعب التشريع والسياسة والتاريخ وعلم الاجتماع وفلسفة الأديان عبا، وإذا كان من العسير عليه أن يظفر بين طلاب تلك المعاهد الذين لا يكادون يجتمعون على أصوات الأساتذة المحاضرين حتى يتفرقوا أفواجا، بمن يتطوع لمعونته في دروسه. فإني أذكرك أن طريفا لم ينل من دهره شيئا إلا بالكفاح وشق

النفس وأنه تعود أخذ العلم من كل قسم عزيز أو بغيض، ذكي أو غبي، عذب أو مستهجن. ولعل أسمج من استقرأ في عروس العالم وزينة الدنيا، زنجية جاءت إلى باريس من جزيرة "الغوادلوب" لتدرس الفلسفة في السوربون. فاتصل بها طريف في نادي جمعية الطالبات واستعانها إبان أحد الاختبارات مقابل أجر معين.

كانت هذه الزنجية قزمة، ضخمة الهيكل، مخشوشنة الراحتين، كخف البعير، جشاء الصوت، عاصفة النبرات، متولعة (بالراء الباريسية) تغوص كلما قرأت أو تحدثت في تضاعيف الألفاظ والسطور، باحثة عن رائها المنشودة رغبة في تغنينها وطلبا لما في التغني من متعة التقاليد واستمالة الأسماع، أو تنفيرها بالأحرى، والويل ثم الويل لهذه الراء إن ظفرت بها وقذفتها من لسانها المتحذلق غاء. بل الويل كله لأذني طريف اللتين حرمتا في الحي اللاتيني رنة هذه الماء العذبة، حتى من أفواه نفر من رفاقه بني يعرب الأبرار. والأمر الأمرّ أن يتجرع قلب طريف مرارة هذه القارئة الظالمة المظلمة، التي لم تكن تكلمه إلا بتقزز واستكبار. ولا تصافحه إلا مرسلة الأصابع متثاقلة، ولا تقرأ له إلا بعد أن ينقدها أجرها أولا، أربعة فرنكات وربع الفرنك في الساعة. كل

ذلك لأنها كانت تحتقر الرجال، ولا ترى فيهم غير ما رأى أبو العلاء في النساء، فكأنما هي رد المرأة واحتجاجها الصارخ على شيخ المعرة وكأنما طريف هو المسؤول عن شريكه في البلوى وإن لم يشاركه في الرأي.

وقد جاء ضغثا على إبالة، إنها كانت مخلافة في مواعيدها. فما تأتي طريفا إلا متأخرة ساعة أو ما يزيد، حتى إذا عاتبها في ذلك وأظهر افتقاره إلى الدرس والمطالعة، أجابت مبتسمة بل مكشرة "من حق الجميلات أن ينتظرن" (ينتظغن).

وقد كانت تتفن في معاذيرها التي لا تنتهي، فتزعم أحيانا أن تبعة تأخرها لا تقع عليها بل على أفلاطون، وأرسطاليس، وسقراط، وزينون، وأبيقور. وسواهم من فلاسفة الإغريق الذين طاروا بها. وهي إن طارت فكالغراب بين أولئك النسور، إلى مقرهم في جبل الأولمب والبرناس، حيث مالوا دون مجيئها في الوقت المعين، ثم تهبط فيلسوفتنا السوداء من علياء الفلسفة فتستقر في كرسيها المعتاد وتضع الساق على الساق، مشعلة لفافة تدخنها بتلذذ عظيم وتتحدث بلذة أعظم. عن الروح والفناء والخلود. وبعد أن

تقضي على ثلثي الساعة وعلى صبر طريف، يخطر ببالها أنها جاءت لتقرأ لا لتلقي محاضرة في الفلسفة، فتأخذ الكتاب، ونشرع في القراءة ماصة حب (البستيل) ومرسلة السعلة تلو السعلة، والقحة إثر القحة، حتى إذا أدركها الملل، وما أسرع مللها. أطبقت الكتاب قائلة:

"أنا لا أحب الحقوق وإني لأعجب كل العجب كيف استطعت، أيها البائس المسكين، أن تقبل على هذا اللون من الدرس وأن تهمل الفلسفة منار العقول والأذهان، ثم لا يلبث الوجدان الفلسفي، أن يلهمها بعض الذوق فتعود إلى الكتاب، فالحديث، فالكتاب، فالحديث. قاتلة بقراءتها وحديثها وغائها وأنفاسها طريفا، ذلك المسكين الذي لم يكن في وسعه إلا أن يصبر على بلواه. ويكظم غيظه وأساه، مخافة أن يجرح قارئته الحساسة فتغضب عليه وتتخلى عن معونته في وقت هو أحوج ما يكون إلى قارئ.

على أن قراء طريف لم يكونوا جميعا بسماجة تلك القارئة العانس، التي أبت أن تسقيه العلم إلا كل مصة بغصة. والتي لم

يطق حملها غير شهر واحد، بل كان معظمهم من صفوة الطالبات اللاتي يعجبك ظرفهن، وحلو حديثهن، فتستأنس بهن، ويهفو إلى لقائهن فؤادك. وكان أكثر تلك الطالبات يختلفن إلى غرفة طريف في أوقا متعينة ويقرأن له دون مقابل ما شاء من أسفار ومصنفات كما كانت زمرة منهن تدعونه إلى منازلهن، وتشركنه في حفلات أسرهن الخاصة، واختلافها إلى مسار التمثيل، ومحافل الموسيقى، والحدائق والغابات، ولا مراء أن هذا الجو البهيج الذي غمر طريفا في الحي اللاتيني، خفف عنه لوعة الفرقة والاغتراب وأعانه إلى حد كبير على إدراك الهدف الذي من أجله أم الحاضرة الفرنسية. فأجيز في الحقوق بامتياز أثار إعجاب أساتذته واللجنة الفاحصة حتى أن بعضهم بكت رفاقه ورفيقاته الفرنسيون لتفوق عربي عليهم حتى في فهم قانونهم المدني الفرنسي واستنباط أحكامه.

بيد أن كد طريف المتصل على إنفاذ ما أسماه والمشروع الجنوني، المنطوي على تحضير ست دبلومات وشهادات في عام واحد أضنى قواه وأوشك أن يسبب نقله من مصنع الفكر إلى مقبرة العقول،

فتلافى هذه الأخطار المحدقة به مكفكفا ما استطاع من نهمه العلمي، واقتصر على ثلاث دبلومات نالها كلها بعون الله.

السّعَادَةُ

كان طريف كالنحلة موردا، يستخرج بشعوره وخياله من أمرّ ما في الوجود، أطيب ما في الوجود، لا يتبرم بالحياة ولا يتظلم منها مهما روعه الدهر، وأثخن في قلبه الجراح، غير دقائق لا تكاد تنقضي حتى يعود كما كان طلق المحيا منبسط الجنان سعيدا.

غير أن الوهن الذي أذاب جسمه، وامتد إلى أعماق نفسه بدل مزاجه، ولون شعوره، فبات كئيبا منقبضا. لا يحس للذة من اللذائذ طعما. ولا يجد فيما كان مبعث بهجته واغتباطه غير الزفرات والمسرات. فنصح إليه الأطباء بالراحة وتبديل الهواء جنوبي فرنسا.

وبينما نتمشى أصيل يوم من أيام الخريف الصافية في المهيع الذي يشطر مونبليه شطرين، إذا به يتنهد من أعماق قلبه، ويشكو جور الطبيعة عليه واستبداد الزمان به.

فتوجعت لحاله ورحت أنشد:

تعب كلها الحياة فما أعجب

إلا من راغب في ازدياد

وما إن فرغت من إنشاد هذا اللحن الحزين، حتى اعترضني قائلا: تؤمن بفحوى هذا البيت؟ فقلت دهشا: كيف لا والحياة من يوم الخليقة إلى يومنا هذا آلام وأوجاع تتوالى، وهي لن تكون غير ذلك، ما دام قوامها الإجبار، ألم نأت الدنيا مرغمين، ونعيش فيها مرغمين، ونغادرها مرغمين.

قال بلى يا صديقي، إن الحياة مرة قاسية متسلسلة المصائب والرزايا، مزدحمة الأوصاب والهموم. ولكن تذكر أنها حلوة أيضا جذابة محببة إلى نفسك؛ قريبة من قلبك، وأن البشر كافة يشاطرونك شعورك لا فرق في ذلك بين عالم وجاهل، بين مؤمن وملحد، ومحسن ومجرم. حتى إن أتعسهم حظا وأعظمهم بلاء لا يرضون عنها بديلا، ولا يغادرونها إلا بنفس ذاقت الموت - وما دام شوقنا للحياة متغلغلا في الجبلة بالغا أقصاه. فن من الخطل والطيش والجنون أن نعرض عنها ونفني أعمارنا في البكاء وشكوى الزمن.

إن مثلنا في هذه الدنيا، كمثل قوم هبطوا على غير علم منهم جزيرة من الجزر واضطروا إلى الاقامة فيها فهل من العقل

والحكمة أن يقضى هؤلاء القوم أيامهم شاكين ناعين؛ بحجة أنهم نزلوا الجزيرة دون استشارتهم أم أن يقتفوا خطى حي بن يقظان وروبنسون فيستثمروا تلك الجزيرة، وينعموا بما فيها من خير وجمال.

إن الطبيعة فتانة في محاسنها، غنية في مواردها، معطاءة لخيراتها، فعلينا أن نقبل عليها وأن نعلم كيف نخضعها لسلطاننا، ونفجر من أحشائها وعلى جنباتها ينابيع النعمة والثراء كما يفعل الغربيون الذين تقدمونا في هذا المضمار وسواه آمادا بعيدة. مع أن بلادهم دون بلادنا خصبا وجمالا، ورجالنا لا يقلون عن رجالهم مواهب وطموحا.

قلت وما يجدينا ذلك ما دام ما ندعوه بالسعادة ونتلمسه في جميع ما يصدر عنا من فعال وأقوال وما يختلج بين جنبينا من أحلام وأمانٍ إن هو إلا سراب خداع لا يكاد يلمع وميضه حتى يختفي عن الأبصار تاركا في القلب غصة وفي المخيلة شبحا وحسرة.

قال يسوؤني أن تكون يا صديقي من أولئك الذين تستعبدهم الأفكار الموروثة، وتتحكم في مشاعرهم ومصائرهم تحكم الغباوة بالغبي، والسفاهة بالسفيه، فأنت لا تجحد السعادة، إلا لأن المجتمع الذي نشأت فيه طبع في نفسك هذا الجحود منذ نعومة أظفارك فآمنت به تقليدا. ولو أنك أنعمت النظر في قولك إنعام الباحث المدقق المتجرد عن الهوى الشخصي والمذهب الفلسفي والديني، لكان لك رأي غير هذا، ويحسن بي قبل أن أتناول بالبحث هذا الموضوع الخطير أن أذكرك ان الانسان مهما ارتقى في علم الحضارة والعمران، ومهما بلغ من العلم والتفكير فإنه مازال يعيش بشعوره وهواه أكثر مما يعيش بعقله وفكره، وإن شعوره وهواه إن هما سوى صدى ما بين جنبيه من حاجات عضوية قلبية عقلية، فنحن من مطلع حياتنا إلى مغربها مفتقرون إلى أن نعمر جسمنا بالطعام، وعقلنا بالمعرفة، وقلبنا بالحب، وما إلى ذلك من ألوان الشعور؟

وهذه الحاجات المتزايدة مع الزمن تختلف لدينا قوة وضعفا باختلاف أمزجتنا، وما يكتنف حياتنا الفردية والاجتماعية من مؤثرات وعوارض، فالذين جبلوا ونشؤوا على حب المعرفة

يحسون وطأة الحاجة إلى الدرس والتثقف، ويرون أنفسهم محمولين على إرضائها طوعا أو كرها، أكثر ممن لم يدخلوا معهدا ولم يقرأوا كتابا.

ويبدو لي أن الناس جميعا ينتظمون من هذه الوجهة زوجين اثنين أو ثلاثة: العامة والخاصة والمرضى.

إن جل البشر عاديون في حاجاتهم لا تحسون إحساسا قويا ملحا غير الحاجات الضرورية لحفظ النوع؛ كالافتقار إلى الطعام، والتزاوج والتناسل، فهذه الحاجات وما يتصل بها من قرب أو بعد، هي وحدها مبدأ أحلامهم ومنتهاها فإن قضوها وأشبعوها رضوا عن الحياة واطمأنوا إليها، ورغبوا فيها، وبكلمة واحدة كانوا سعداء ذلك بأن السعادة لديهم تقوم على إرضاء ما لهم من حاجات حيوانية، وهذا اللون من ألوان السعادة أقدم ما عرفه الإنسان في تاريخه، إذ إنه يكاد يكون مشتركا بين أفراد الجنس.

أما الخاصة وإن شاركوا العامة نزعاتهم، فإنهم يمتازون عنهم بما لهم من حاجات قهارة تتغلب على غيرها من الحاجات المألوفة، وتصبح هي وحدها الباعث الأول لأعمال من يحسونها كحاجة

البحث عن الحقيقة لدى الإمام الغزالي، و استنباط الأحكام الشرعية لدى الإمام مالك، وما قلته في هذين الإمامين الكبيرين ينطبق من هذه الوجهة على كل من حمل في حنايا ضلوعه لبانة من تلك اللبانات العمارة سواء أكان غرض تلك اللبانة علمًا أم فنا، دينا أم سياسة، هوى بريئا أم فسوقا أثيما، فالغزالي وابن الفارض والمتنبي والأفغاني وفيصل وزغلول وأديسون وقيس لبنى وأبو نواس كلهم من الخاصة في لباناتهم ، وإن اختلفت أهدافهم نبلا وصغارا.

لا جدال في أن الخاصة يجدون في تغذية لباناتهم المألوفة ما يجده العامة من لذة، بيد أن السعادة لن تغمر نفوسهم إلا بمزاولة لباناتهم تلك.

فالغزالي حجة الإسلام لا يعرف السعادة إلا في إدراك الحقيقة المطلقة والتقرب منها بالتأمل والعبادة، والذود عن شريعته السمحة، وابن الفارض سلطان العاشقين لا يعرفها إلا في الكشف والفناء في ذات الخالق جل جلاله على مذهب المتصوفة. والمتنبي قطب شعرنا العربي كله لا يلقى السعادة إلا في قبضة الصمصام

وتضريب أعناق الملوك. وفيصل وزغلول لا يلقيانها إلا في رفع الضيم عن مجتمعنا العربي وتحقيق أماني الدنيا العربية. أما قيس لبنى فلا يدرك السعادة إلا بقرب زوجته المطلقة قسرا، وأبو نواس لا يدركها إلا في تأليه الخمرة وتجرير أذيال الفسوق.

ويتضح لك مما أسلفت أن السعادة نسبية لدى الخاصة، مطلقة لدى العامة. وسواء أكانت هذه أم تلك فإنها ليست العنقاء كما زعم الشرق، ولا قميص الراعي كما زعم الغرب. بل هي حقيقة تتجلى في الرضا عن الحياة والاطمئنان إليها والرغبة فيها. وأي شيء يحق لنا معاشر الآدميين أن تتطلب من الدنيا أكثر من هذا الشعور العميق، الذي إن فات أناسا فقد غمر آخرين، وسيغمر غيرهم، ما أسعدهم الجد بمزاولة ما لهم من آمال عزيزة وأحلام غالية.

فقلت: ولكن لا يغيبك يا طريف أن الانسان جشع لا يقضي مأربا من المآرب حتى يستهويه مأرب كمن يستهدف الأجازة بدافع اللذة، فإنه لا يكاد ينال هذه الشهادة حتى يتطلع إلى سواها، فالحياة كلها لبانات متسلسلة آخذ بعضها برقاب بعض.

قال ليست الأجازة هدف طالب العلم يا صديقي، ولكنها إحدى المراحل التي يمر بها في طريقه إلى هدفه الأسمى - المعرفة. وهب أنها كانت هدفه، فأي ضرر في أن يطمح إلى ما يعلوها من الشهادات ما دمنا كلما بلغنا هدفا نشعر بغبطة عظيمة وما دام السعي نفسه وراء الهدف يديم هذه الغبطة، ويحول دون انقضائها، فتسلسل اللبانات وانبثاقها بعضها عن بعض لا يبعد عنا السعادة بل يذكيها، فالسعادة حركة مستمرة مطردة النمو والاتساع، كالشجرة المثمرة تغرسها وتمدها بالرعاية، فإن نمت وارتفعت خضراء متماوجة الأغصان وارفة الظل طيبة الثمر أبهجك ما تبصر فيها من نتاج جهدك، وتمتعت بمنظر زاه، وثمر شهي، وظل ظليل.

على أن فئة من الناس وإن وفقوا في قضاء مآربهم الغلابة القهارة، فإنهم لا يعرفون السعادة، ذلك بأنهم مرضى.

إن النفوس كالأجسام لها أمراضها التي تؤذيها، وتنفح في بهجة الحياة وأفراحها بما يبدل طعمها ويجعلها مريرة المذاق، وكما أن الأمراض العضوية حقيقية أو وهمية فإن الأمراض التي تعتور

النفس حقيقية أو وهمية أيضا، فالأولى إن لم تكن من غرس الطبيعة فإنها كثيرا ما تصيب الأفراد الذين تحققت أحلامهم دون عناء، كما تصيب أولئك الذين ازدحمت عليهم المصاعب في مقتبل العمر، وأطبقت من كل جانب فأطاشت سهامهم وخيبت المرة بعد المرة أحلامهم وأمانيهم.

أما الأمراض الوهمية فهي التي نخلقها بشذوذ فكرنا وشرود خيالنا، أو نقتبسها بالعدوى من المجتمع.

ولا مراء، إن كلا المرضين منتشران في مجتمعنا العربي انتشارا عظيما وهو لن يبرأ منهما، ويبلغ مثله العليا إلا إذا استيقظ وسلم قياده إلى رجال من بنيه ينحصر في مشاعرهم ومداركهم مدى الحياة في تحقيق تلك المثل، فيهملون على تنظيم بلادنا تنظيما يضمن لأبنائها السعة والرخاء. ويمكنهم جهد المستطاع من إرضاء لباناتهم، وإشباع رغباتهم، وحينئذ يستطيع كل عربي أن يستثمر مواهبه وكنوز بلاده، فيحيا راضيا عن الحياة، مطمئنا إليها، راغبا فيها، مجتنيا لذائذها المبثوثة في كل مكان.

وكأن هذا الحديث، أشحذ عزم طريف، وأثار طموحه، فما كاد ينطق بالجملة الأخيرة حتى كان في طريقه إلى الحي اللاتيني، حيث نال في نهاية العام الدراسي دبلومة وشهادتين، وأخذ يحضر في العام الذي تلاه شهادة ودبلوما فضلا عن أطروحة الدكتوراة في الحقوق.

سرّ العبقريَّة

وقف طريف على ساحل الريفيارا الجميل يناجي البحر، ويصغي إلى لحن أمواجه، كأن ذلك اللحن صدى يتكسر على شط لبنان من أمواج، وكأن تلك الأمواج مدى شوقه، وحنينه إلى وطنه الذي لم يغرب قط من فؤاده ولم يفارق خياله فانتقل بالذكرى من شاطئ دنيس إلى شواطئ بيروت وجنح يطوف بخواطره في بقعة اقتطعت فلذة من قلبه، ويدغدغ فيها طلول أفراحه وأحزانه، تلك الطلول التي لها في نفسه من السحر ما يحول بألوان من البؤس نميما دونه كل نميم. وإنه لهائم، فوق رمال بيروت، وفي أحراجها، في مساجد طرابلس وجنائنها، في مسقط رأسه وكرومه وعينه وبساتينه، وبيادره وحقوله، إذا صوت رخيم الجرس حلو النبرات معذوذب الأنغام يخرج من قلبه إلى قلبه، ويدعوه إلى من لم يترك الدهر له من أسرته كلها إلا إياها، فغادر الحاضرة الفرنسية بعد انقضاء دورة نوفمبر، وودع الحي اللاتيني غائر النفس حيران سادرا تتقاذف قلبه العواطف بين الشرق والغرب، فيتحرق شوقا إلى من يلقى وحزنا على من فارق.

ولما أرست الباخرة في مرفأ بيروت وانتثر فوق ظهرها وعلى جنباتها العائدون يرقبون من سارع من الأهل للقائهم، ظل طريف واجما

محزونا يسائل الزمن عن أمه وأبيه وإخوانه وأخيه، فلا يجد إلا الغصص جوابا، وإلا أدمعا حيرى تضطرب في عينيه لا تتساقط خجلا من الخجل ولا تستقر من فرط الألم.

أما أنا فقد أخذت أفكر بمصيره في المجتمع بعد أن رافقته في المدرسة من كتاب القرية الأول، إلى معهد الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم السياسية، فلم أجد عملا ما يستطيع القيام به غير ما ينصرف إليه العمي عادة في مجتمعنا من منادمة الموتى. وما إن أطلعته على ما دار في خلدي حتى استشاط غضبا وانبرى يرد على بعنف:

ما للسانك لا يحمل إلى إلا سخفا ووهما كأن دماغك مستودع الأوهام، وكأن تلك الأوهام أصداف تحجب عنك اللآلئ، فلا ترى في العمى غير العمى، كالبوم لا يفتنها من الكون الفسيح غير الخرب، أتظن أن الرجال الذين يسوسون الأمم والشعوب ويتدبرون العالم وشؤونه إنما يفعلون ذلك بعيونهم، أتظن أن الفاروق والمنصور وصقر قريش وقاهر الفرنجة ومطرقة الغضب الإلهي وأنداده من أولي العزم الذين بدلوا سنة تكوين الأمم

ورفعوا مجتمعاتهم فوق المجتمعات شرفا وعمرانا، إنما قطعوا أغلال البشر وسلاسل الدهور بعيونهم.

إن على وجه الأرض ملايين من العيون المفتحة، غير أن قادة الأمم ومسيري الشعوب قليلون، وأقل منهم أولئك الأبطال الذين يصنعون التاريخ، وما أبغي أن أقول لك إني سأسير في موكب هؤلاء الخالدين؛ وإنما أريد أن تعلم أن قيمة الرجال لا تقاس بعيونهم بل بتلك الشعلة المتقدة في أدمغتهم والعواطف المستعرة في صدورهم والعزائم الملتهبة بين جوانحهم، و بكلمة واحدة بذلك الروح الجبار الذي نفخه الله في أبدانهم وكون منه جوهر بني الانسان، وإذا كان هذا الجوهر هو وحده سر عبقرية الإنسان وإبداعه فأي شيء يصد الأعمى عن استعمار مواهبه بل أي شيء يجيز حرمانه وحرمان المجتمع شهى ثمارها ما دام هذا الجوهر يشمله كما يشمل سواه؟

أليست الحياة كلها في استثمار المواهب؟! إن الأعمى الموهوب يستطيع أن يمارس جل الأعمال الاجتماعية ويتفوق في ممارستها

تفوق المبصر الموهوب متى استعار في المسائل النظرية الصرف عيني مؤتمن أمين.

أليس بشار بن برد - وإن لم يعجب طه حسين - أمير الشعراء المخضرمين ومن أضخم من أنجب مجتمعنا العربي من شعراء، وصاحب غير مجد ورسالة الغفران شيخ من فكر وقال شعرا أو نثرا في زمانه. والدكتور طه حسين، وإن كان لي عليه بعض المآخذ أعظم من بحث منا وأنتج في تاريخ أدبنا العربي.

قلت: أنت تعتقد إذن أن كل أعمى أحد هؤلاء العبقريين؟

قال: أجل، إن كنت تعتقد أن كل مبصر هو أبو نواس أو ابن رشد أو أبو الفرج، فالعمي يختلفون في مواهبهم ومؤهلاتهم كما يختلف المبصرون. فإذا كان من المبصرين العبقري المتفوق، والغبي الخامل المغرق في غباوته وخموله، فإن بين العمى كذلك الغبي الخامل والألمعي المبرز على النظراء والأقران، فلا تخلط بين أعمى وأعمى ولا تتهم العمى بما اتهمت به المرأة في القرون الغربية المظلمة من أنها ما خلقت إلا أداة لمتعة الرجل، ولا ما اتهم به الرقيق قديما من أنه كالحمار حيوان داجن ولا بما اتهم به

سواد الشعب الفرنسي قبل الثورة من أنهم يحملون في عروقهم دما أحمر فاسدا يغاير في لونه وخصائصه ما يجري في عروق الأشراف والأكليروس من دم أزرق طاهر، ولا بما اتهم به البشر قاطبة في مملكة يهوذا المنقرضة والإمبراطورية الألمانية الحديثة من أنهم ما خلقوا إلا للطاعة والانقياد الشعب إسرائيل المختار وللشعب الألماني المتفوق، بل حسن رأيك في العمي وتيقن أنهم لا يقلون عنك شأنا، وأنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

وإذا أبيت إلا التشبث بوهمك واعتقدت أن ما قلته لك إن هو إلا خيال شاعر، أو منطق مفكر، أو حلم وسنان، فافعل ولك في إمام الفلاسفة وجهابذة التفكير أسوة حسنة.

ألم يكن المعلم الأول سخيفا حين ادعى أن الرقيق دون البشر، وأقطاب الفكر اليهودي والألماني سخفاء فيما ذهبوا إليه من آراء ونظريات عرقية؟ فالسخف كما ترى ليس وقفا عليك بل هو قانون عام يسري حكمه على العلماء والجهلاء، الأذكياء والأنبياء من بني آدم لغرورهم وادعائهم معرفة كل شيء على الرغم من

اعترافهم بأن قصور عقلهم وضيق مداركهم لا يتناسبان وضخامة طموحنا العلمي ومرامينا الفلسفية، وما أصدق من قال في هذا الصدد: "لا حد للسخافة البشرية".

قلت عفوا يا طريف! ما توخيت أذاك ولا النيل من كرامتك ومقدرتك، ولا يفوتك أنك قافل إلى مجتمع متخلف لا يزال يجحد المواهب، ولا يؤمن بالكفاءة، إلى مجتمع قوامه أسر ما زال أكثرها منبت اللؤم والجهل والغباوة والإجرام والحسد، إلى مجتمع ثنايا مرتقاه الدس والتملق والصغار، إلى مجتمع يغاير مزاجه مزاجك وهواه هواك ومذهبه في الحياة مذهبك، إلى مجتمع ما خلقت له ولا خلق لك، إلى مجتمع يوشك أن يكون رمس العبقرية والطموح.

فتنهد من أعماق صدره تنهد العائد من أوروبا إلى آسيا ثم قال: لكن لا تنس كذلك يا صديقي أن من انطلق في الحياة من المهد وحده وأقام على صمم الجلاميد روضة فينانة متنوعة الغراس زاهية الورود دانية المجاني، لا يرفع راية الاندحار، فإذا كان علم العلم والوعي والحياة لما يخفق بعد في أفق مجتمعنا العربي، وإذا

كان قلب الوليد العربي الكبير لا ترفرف رايته اليوم في الشرق كما ترفرف راية الحضارة الغربية في الغرب، فإن راية الله، تخفق في كل مكان وإن العزم والامان اللذين أودعهما صدري يخفقان في قلبي وكل جوارحي وإذا وقف اللؤم والجهل والغباوة والحسد دون ما يستهوي هواي ويطمئن إليه ضميري، وإذا استخف مزاجي بجشع الإنسان وشقاء نعيمه، وتعالى عن غروره وحضيض رقيه، واترع إبائي وفراغ يدي بالهم والأحزان فؤادي، فعقل كل ذلك جناحي وحال دون انطلاق في المجتمع كما انطلقت في المدرسة وحلقت، فإني سأزحف زحفا وسأبلغ بعون الله مهما طال الزمن ما أطمح إليه، فأحلق في فلك لن تبلغه عيناك وأفني هناك في موكب الطموح والمثل الأعلى قرير النفس سعيدا، فأخلد غير مكترث بالزمان والإنسان في ضمير الزمان والإنسان بل في ضمير الوعي والوجود.

وهبطنا الأرض في السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٣٦، فصافحت طريفا مودعا وانصرفت مع أهلي إلى أهلي وانصرف طريف.

المحتويات

طريد القدر	
انطلاق	
أنين	
العينان بالوكالة	
نديم الأموات	
ميزان الجمال	
دنيا الإنسان	
إشعاع النّفس	
الصّريع	
السّعادة	
سرّ العبقريّة	

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان